النص4 المقارنة منهج الأنتروبولوجيا الاجتماعية

مهمة الأنتروبولوجيا الاجتماعية باعتبارها علما طبيعيا للمجتمع البشري، هي البحث المنظم في طبيعة المؤسسات الاجتماعية. منهج العلوم الطبيعية يقوم دائما على مقارنة الظواهر الملاحظة، وهدف هذه المقارنة هو، باختبار يقظ للاختلافات، اكتشاف التماثلات الخفية. إن المنهج المقارن المطبق على المجتمعات البشرية والمستخدم كأداة للاستقراء، يسهل علينا اكتشاف الخصائص العامة والأساسية التي تنتمي لكل المجتمعات البشرية الماضية والحاضرة والمستقبلية. إن بناء معرفة من هذا النوع بالتدريج يجب أن يكون هدف كل من يعتقدون أن علما حقيقيا للمجتمع البشري ممكن ومرغوب.

يمكننا مع ذلك أن نأمل في المرور مباشرة من الملاحظة التجريبية إلى معرفة القوانين والمبادئ الاجتماعية العامة. محاولة المباشرة بهذا المنهج السهل في الظاهر يقود إلى خطأ معرفي جلي. الاختلاف العظيم لأشكال المجتمع البشري يجب أولا أن يختزل بنوع من التصنيف. ومقارنة المجتمعات بعضها ببعض تتطلب تمييز وتحديد مختلف الأنماط. هكذا فإن السكان الأصليين لأستراليا ينقسمون إلى مئات من القبائل المنفصلة، كل واحدة لها لغتها الخاصة وتنظيمها وعاداتها ومعتقداتها، لكن اختبار عينة كافية تبين أن تحت تلك الاختلافات هناك تشابهات عامة على أنها نمط أسترالي. النمط بشكل طبيعي هو تجريد بنفس الطريقة التي نجرد بها أنماط مثل "آكل اللحوم" أو "الحافريات" ولكن هذا التجريد لا يبتعد إلا قليلا عن الواقع المحسوس. عندما يتم تحديد عدد معين من الأنماط بطريقة ملائمة، يمكن بدورها أن تقارن ببعضها البعض وخطوة نحو التجريد عندئذ يمكن أن تنجز. بهدا المسعى، الذي يتطلب بديهيا عمل العديد من الباحثين خلال عدد من السنوات، يمكننا أن نخلص إلى تصنيفات ومفاهيم مجردة. هذه المفاهيم والتصنيفات المحددة المعرفة بدقة، تتطابق بدقة مع الواقع التجريبي. [...] في العلم الطبيعي للمجتمع، المنهج المقارن يأخذ مكان المنهج التجريبي في علوم أخرى.

رادكليف براون

Systèmes politiques africains, Preface,

PUF, paris, 1964, P. XIII- XIV.

أ–فهم النص:

1–تفكيك النص

–الأنتروبولوجيا الاجتماعية علم طبيعي كبقية العلوم الطبيعية الأخرى (الفيزياء، البيولوجيا...) مهمتها البحث في طبيعة المؤسسات الاجتماعية إنها علم طبيعي للمجتمع.

–منهج العلوم الطبيعية يقوم على مقارنة الظواهر الملاحظة من أجل اكتشاف التماثلات الخفية وراء الاختلافات الظاهرة.

–المنهج المقارن المطبق على المجتمعات البشرية والمستخدم كأداة للاستقراء غايته الكشف عن الخصائص العامة والأساسية التي تنتمي لكل المجتمعات البشرية سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

–هذه الغاية المعرفية هي هدف الأنتروبولوجيا.

–من الملاحظة التجريبية تمر الأنتروبولوجيا إلى معرفة القوانين والمبادئ الاجتماعية العامة.

–المنهج المقارن ليس سهلا كما يبدو في الظاهر.

–لتطبيق هذا المنهج يجب أولا اختزال الاختلاف العظيم لأشكال المجتمع البشري بنوع من التصنيف. ثم تحديد وتمييز مختلف الأنماط أثناء المقارنة بين المجتمعات. مثال ذلك سكان الأبوريجان بأستراليا فهم قبائل منفصلة بعاداتها ومعتقداتها ولغاتها ولكنها جميعا تكون النمط القبلي الأسترالي.

–النمط في الأنتروبولوجيا هو مفهوم مجرد كما هو الحال في العلوم الطبيعية مثل نمط " آكل اللحوم" أو "الحافريات".

–بعد تحديد عدد معين من الأنماط يمكن مقارنتها ببعضها البعض نصل إلى مرحلة التجريد.

–بهذا العمل المتمثل في المقارنة والذي يتطلب العديد من الباحثين وأيضا الوقت الطويل، يمكن أن تخلص الأنتروبولوجيا إلى تصنيفات ومفاهيم مجردة تتطابق مع الواقع التجريبي.

وهكذا فالمنهج المقارن في العلم الطبيعي للمجتمع الذي هو الأنتروبولوجيا يأخذ مكان المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية الأخرى.

2–الكلمات المفتاحية: الأنتروبولوجيا الاجتماعية، المنهج المقارن.

3–الفكرة العامة: المنهج المعتمد في الأنتروبولوجيا (الاجتماعية) هو المنهج المقارن.

4-الإشكال: فيما يتمثل منهج الأنتروبولوجيا (الاجتماعية)؟

ج-المقالة:

1)-ثمة مقولة إبستمولوجية تقول:" طبيعة الموضوع تحدد نوع المنهج"، وهذا ينطبق على الأنتروبولوجيا. فهي تتميز بتناولها للثقافة والمجتمع كموضوع أي الظواهر الاجتماعية والثقافية وهذا الموضوع فرض منهجا معينا يميزها عن بقية العلوم الاجتماعية. وإذا عرفنا أن المنهج هو مجموع الخطوات المتبعة من أجل الوصول إلى هدف محدد، ففيم يتمثل منهج الأنتروبولوجيا الاجتماعية يا ترى؟

2)-يتمثل منهج الأنتروبولوجيا الاجتماعية حسب فورتس وإيفانز- بريتشارد في المنهج المقارن.

3)-المنهج المقارن الذي تعتمده الأنتروبولوجيا والذي يميزها عن غيرها من العلوم الاجتماعية تفرضه طبيعة هذا العلم ذاته إذ هو علم طبيعي كبقية العلوم الطبيعية الأخرى كالفيزياء البيولوجيا، موضوعه البحث في طبيعة المؤسسات الاجتماعية.

وهذا المنهج المقارن في الأنتروبولوجيا يقوم على أساس مقارنة الظواهر الملاحظة من أجل اكتشاف التماثلات الخفية وراء الاختلافات الظاهرة. وهذا المنهج يمثل أداة الاستقراء الذي يقوم على الانتقال من الخاص إلى العام ولذلك فإن غاية هذا المنهج المقارن هي اكتشاف الخصائص العامة والأساسية التي تنتمي لكل المجتمعات البشرية سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ومن ثم بلوغ القوانين والمبادئ الاجتماعية العامة.

لكن المنهج المقارن ليس سهلا كما يبدو في الظاهر. فمن أجل تطبيقه ينبغي أولا اختزال الاختلاف العظيم لأشكال المجتمع البشري بنوع من التصنيف ثم تحديد وتمييز مختلف الأنماط أثناء المقارنة بين المجتمعات. مثال ذلك سكان الأبوريجان بأستراليا فهم قبائل منفصلة بعاداتها ومعتقداتها ولغاتها ولكنها جميعا تندرج ضمن نمط قبلي واحد هو النمط الأسترالي.

والنمط في الأنتروبولوجيا مفهوم مجرد كما هو الحال في العلوم الطبيعية (البيولوجيا) مثل نمط "آكل اللحوم" أو "الحافريات". وتحديد الأنماط يتبعه عملية مقارنتها ببعضها البعض للوصول بعد ذلك إلى مرحلة التجريد. وبهذا العمل المتمثل في المقارنة والذي يتطلب العديد من الباحثين وأيضا الوقت الطويل يمكن للأنتروبولوجيا أن تخلص إلى تصنيفات ومفاهيم مجردة تتطابق مع الواقع التجريبي.

وهكذا فالمنهج المقارن في العلم الطبيعي للمجتمع الذي هو الأنتروبولوجيا يأخذ مكان المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية الأخرى.

4)–ولكن ما هي قيمة المنهج المقارن في الأنتروبولوجيا؟

في الواقع إن المقارنة هي المنهج الذي تقوم عليه الأنتروبولوجيا، بحيث يذهب بعضهم إلى تعريفها بواسطة هذا المنهج يقول مارك أديلار تروميلاي و ر. ج. بريستون:" الأنتروبولوجيا هي الدراسة المقارنة للثقافات الماضية والمعاصرة، مشددة على أساليب الحياة وعادات كل شعوب العالم"

ويقول بوشيه في معجم الإتنولوجيا والأنتروبولوجيا " تعرّفُ الأنتروبولوجيا، التي تشكل قابلية الثقافات الإنسانية للتغيير غرضها بالتحليل المقارن للمجتمعات الإنسانية، سواء تركز على وصف مجتمع معين وفهمه أو على كشف قوانين عامة، وراء ما هو خاص، من خلال مقابلة ثقافات مختلفة أو مقابلة بعض عناصرها. مع ذلك تستعمل عبارة التحليل المقارن أو مقارنة الثقافات بهذا المعنى الثاني عموما. إنها تدل في هذه الحالة على المناهج التي من خلالها يقارن الباحث بوضوح الظواهر الثقافية من أجل تعليلها أو تأويلها"[1].

أولى أمثلة التحليل المقارن للأنظمة الاجتماعية– الثقافية تظهر في محاولات تقديم تاريخ جامع. لقد طرح المؤرخ العربي ابن خلدون في المقدمة المسهبة لتاريخه الشامل، مبادئ علم تاريخي يشمل علم الاجتماع العالمي، وما زال تحليله المقارن لنمطين عامين: البادية (النمط البدوي) والحضارة (النمط المدني) مثالا في هذا الميدان. وفي ميدان الأنتروبولوجيا كان مورجان أول من طبق المنهج المقارن على المعطيات المجمعة ميدانيا. فبعد أن دون مصطلحات القرابة المستعملة لدى هنود أمريكا الشمالية، ربطها بمؤسسات أخرى وصنفها في تتابع نشوئي. ورادكليف– براون يصف الأنتروبولوجيا بأنها علم اجتماع مقارن.

لكن هل الأنتروبولوجيا علم طبيعي كيفية العلوم الطبيعية الأخرى؟

في الواقع هذه إشكالية إبستمولوجية اختلف حولها الفلاسفة والعلماء. يذهب أنصار المذهب التاريخاني إلى رفض استخدام منهج العلوم الطبيعية في العلوم الاجتماعية بحجة أن هذه الخيرة تختلف عن الأولى. ولذلك فهم يقولون بأن العلوم الاجتماعية يجب عليها أن تستخدم منهجا آخر يخالف منهج العلوم الطبيعية باعتماده على إدراك باطني للظواهر الاجتماعية ويمكن أن نلتمس خصائص هذا المنهج في التالي: يهدف علم الطبيعة إلى التفسير العلمي، أما علم الاجتماع والأنتروبولوجيا فيهدفان إلى إدراك الأغراض

[1]- بيار بونت وميشال إيزار، **مرجع سابق**، ص 356.

والمعاني. وفي علم الطبيعة تفسر الحوادث تفسيرا كميا محكما ويكون هذا التفسير بواسطة الصيغ الرياضية. أما علم الاجتماع فيحاول فهم التطورات التاريخية بواسطة يغلب عليها الطابع الكيفي، فيعتبر التاريخ مثلا صراعا بين الميول والأهداف، أو يلجأ إلى ما يسمى بالطابع القومي أو روح العصر. وهذا هو السبب في أن علم الطبيعة يستخدم التعميم عن طريق الاستقراء، في حين أن علم الاجتماع ليس له إلا أن يستعين بالمشاركة الوجدانية عن طريق المخيلة. وهو أيضا السبب في قدرة علم الطبيعة على الوصول إلى القوانين الكلية وتفسير الحوادث الجزئية باعتبارها حالات خاصة لهذه القوانين، بينما لا بد لعلم الاجتماع من أن يقنع بإدراك الحوادث الفذة إدراكا حدسيا، وأن يكتفي بفهم دورها في المواقف المعينة الناشئة في إطار معين من صراع المصالح أو الميول أو المصائر. ونعتقد أن ما يقال على علم الاجتماع ينطبق على الأنتروبولوجيا.

5)– وفي الختام يمكن القول إن طبيعة الأنتروبولوجيا إن كانت علما طبيعيا أم لا تبقى إشكالية إبستمولوجية تتباين حولها الآراء ووجهات للنظر. ولكن مهما كان الأمر فالمهم هو قيمة النتائج المتوصل إليها من أجل فهم الإنسان سواء انطلقنا من مسلمة أنها علم طبيعي أو من المسلمة المخالفة.